﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحَجّ: 42 - 44]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

لا يمنعُ ضمانُ النَّصرِ الدَّعمَ بالتَّسلية

قال فخر الدّين الرّازيُّ: "لمّا بيَّنَ فيما تقدَّم إخراجُ الكفّارِ للمؤمنين من ديارهم بغير حقٍّ، وأذِنَ في مُقاتلَتِهم، وضمِنَ للرّسول ﷺ والمؤمنين النُّصرةَ، وبيَّنَ أنَّ للّه تعالى عاقبةَ الأمور؛ أردفَهُ بما يجري مَجرَى التَّسلية للرَّسول ﷺ في الصّبر على ما هُم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتَّكذيب وغيره"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾: (ملو) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على امتدادٍ في شيءٍ زَمانٍ أو غيرِهِ[2]، والمعنى المحوريُّ: اتّساعُ ما يجوز شيئًا أو امتدادُهُ؛ كالمُتَّسع مِنَ الأرض لِما فيه، وكذلك الفلاة[3]، والمَلي مِنَ النَّهارِ: السّاعَةُ الطَّويلَةُ، والمَلي: المُتَّسَعُ، يُقالُ: انتَظَرتُهُ مَليا مِنَ الدَّهرِ؛ أيْ: مُتَّسَعًا منهُ، وهو صِفَةٌ استُعمِلَت استِعمالَ الأسماءِ، ويُقالُ: أملَيتُ للبَعيرِ في قَيدِهِ: وسَّعتُ لَهُ[4]، ومِنهُما ورد في هذه الآية، ومعناها: أمهَلتُهُم.

2) ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾: (أخذ) أصلٌ واحدٌ تَتَفَرَّعُ منهُ فُروعٌ مُتَقارِبَةٌ في المعنى[5]، والمعنى المحوريُّ: حَوزُ الشّيءِ في الأثناء ضمًّا أو قبضًا على

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 231.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (ملو).
(4) المُطَرِّزيّ، المُغرِّب في ترتيب المُعرَّب: (ملو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).

غِلَظٍ مادّيٍّ أو معنويٍّ[1]، والأخذُ: خلافُ العَطاءِ، وهو أيضًا التَّناوُلُ، أخذتُ الشَّيءَ آخُذُه أخذًا: تَناوَلتهُ؛ وأخَذَه يأخُذه أخذًا، وقولُهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ [الحج: 48]؛ أي: أخذتها بالعذابِ[2].

3) ﴿نَكِيرِ﴾: (نكر) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على خلاف المَعرفة الّتي يسكُنُ إليها القلبُ، ونَكِرَ الشّيءَ وأنكرَهُ: لم يَقبَلْهُ قلبُهُ، ولم يَعتَرِفْ به لسانُهُ[3]، فالإنكارُ: ضِدُّ العِرفانِ، يُقالُ: أنكَرتُ كذا، ونَكَرتُ، والمُنكَرُ: كلُّ فِعلٍ تحكُمُ العقولُ الصّحيحةُ بقُبحِه، أو تتوقَّفُ في استقباحِه واستحسانه العقولُ، فتحكُمُ بقبحه الشّريعةُ، ونَكَرتُ على فُلانٍ وأنكَرتُ: إذا فَعَلتَ به فِعلًا يَردَعُهُ، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ أيْ: إنكاري[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

طريقُ الدُّعاة إلى الله تعالى شاقَّة وسلاحُهم فيها الصَّبرُ والتَّأسّي

وإنْ يُكذِّبْكَ أهلُ مكَّةَ - يا محمّد ﷺ - فاصبِرْ ولا تحزَنْ؛ فذلك ديدنُ الكفّارِ مع رسلهم، ولستَ أنت أوّلَ مَن يُكذَّبُ مِن قِبَل قومه؛ فقد كَذَّبتْ أقوامُ الأنبياء أنبياءَهم قبل تكذيب قومِكَ لك؛ فكَذَّبَ قومُ نوح نبيَّهم، وكذَّبَت عادٌ نبيَّهم هودًا، وكذَّبَت ثمودُ نبيَّهم صالحًا، وكذَّبَ قومُ إبراهيمَ أبا الأنبياء إبراهيمَ، وكذَّبَ قومُ لوط نبيَّهم لوطًا، وكذَّبَ أصحابُ مَدينَ نبيَّهم شعيبًا، وكذَّبَ فرعونُ والأقباطُ نبيَّهم موسى؛ فأقمتُ على الكافرين الحُجَّةَ بالإملاء والإمهال إلى نهاية آجالهم - مع علمي بانعقاد قلوبهم على الكفر، وأنَّهم لن يُؤمنوا - ؛ فيظهرَ لهم ويتحقَّقَ عليهم جُرمُ إصرارهم على الكفر، ويتأكَّدَ لهم استحقاقهم العذاب، فكان عذابي بهم عذابًا شديدًا مُنْكرًا لا يَتصوَّرُ أحدٌ فظاعته.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (أخذ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(3) ابن فارس: مقاييس اللّغة: (نكر).
(4) الرّاغب، المُفردات: (نكر).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾:

التَّأسّي بأهل الطَّريق يُهوِّن صعوبة المسير

الواو في جملة ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ واو الاستئناف؛ إذْ يشرَعُ النّظمُ الكريمُ في مواساة الرّسول ﷺ بما وقَعَ للمُرسَلين قبلَه من أقوامهم من تكذيبٍ مثل تكذيبِ قومه له، وصبرِ المُرسلين في سبيل نشر عقيدة التّوحيد؛ ففي المواساة بذلك شدٌّ لأزره ﷺ، وتلطيفٌ لمرارة التّكذيب، وبخاصّة أنّ مِن أهله الّذين يَعلمون عنه، ويُقرّون له بأنَّه لا يَكذِبُ ولا يَخونُ.

علَّة تقييد تكذيبه ﷺ بـ (إن):

مواساة الصّالحين بِنَفي التُّهَم عنهم منهجٌ قرآنيٌّ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ تقييدَ تكذيب الكفّار له ﷺ بـ (إنْ) - دون (إذا) المُتَّسِقة مع التّكذيب الحاصل - تكريمًا له ﷺ بإشعارِهِ من خلال (إنْ) بأنّه ليس بمثابة أن يَكذِبَ، وأنّ تكذيبَهُ يجبُ ألّا يكونَ إلّا على سبيل الافتراض الّذي يُعبَّرُ عنه بـ (إنْ)، وأنّ اللّه تعالى يعرِفُ له قدرَهُ، ويحفَظُ له جنابَهُ، وأنَّه ﷺ منه سبحانه وتعالى بمكانةٍ، وفي ذلك تطييبٌ لخاطره ﷺ وشحنٌ لِهمَّته، وتثبيتٌ لِخُطاه على طريق الحقّ، والدّعوة إلى اللّه تعالى.

دلالة التَّعبير بالمُضارَعة في ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾:

لِصيغِ الكلمات دَورٌ فاعلٌ في تلطيف ثِقَل المِحَن على النُّفوس الموجوعة

في إيثار التّعبير بالمضارعة في فعل الشَّرط ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ اتّساقٌ بارعٌ مع التّقييد بـ(إنْ)؛ إذ يُبعِدُ اللّهُ تعالى عنه ﷺ رائحةَ التّكذيب الواقع فعلًا في حقّه، ومع ذلك يُؤثِرُ النَّظمُ الكريمُ صيغةَ المضارعة الّتي لا تُقطَعُ بالتّكذيب، ولا تُثبتُهُ له، ولا تُحقِّقُهُ بصيغة الماضي لو عُبِّر بها في غير القرآن الكريم، وقد عبَّرَ القرآن الكريم بالماضي في ثلاثة مَواضِعَ: [آل عمران: 184، والأنعام: 147، ويونس: 41]، وبالمضارعة في ثلاثة: [الحجّ: 42، وفاطر: 4، وفاطر: 25]؛ وكلُّها مقيَّدةٌ بـ (أن) دليلًا قاطعًا على أنّ تكذيبَه ﷺ ممّا حقُّه ألّا يكون

إلّا سبيلَ الافتراض، وإلى ذلك؛ ففي المضارعة إشارةٌ إلى أنّ تكذيبهم سيتجدَّدُ.

دلالة التّعبير بالتّكذيب الصّريح ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾:

هدمُ كلِّ التُّهَم عنِ الصّالحين بِهدم أبشَعِها منهجٌ قرآنيٌّ

في التَّصريح بمُفردة التّكذيب في حقِّه ﷺ إزراءٌ على مَنْ تكبَّدَ تلك الجريمة، وتحقيقٌ لجُرْمه، كذلك فيه نفيٌّ وإبعادٌ لأقبح ما يمكن أن يوجَّهَ إليه ﷺ ؛ ليكونَ نفيُ ما دونَهُ وإبعادُ ما تحته عنه آكَدُ.

ولا شكَّ أن مُقاتَلةَ أهل الحقِّ أهونُ من تكذيبهم التّكذيبَ الصّريحَ، وإنْ كانَت مُقاتلتهم من نتائجه وثماره، وقديمًا قالوا:

جِراحاتُ السِّنانِ لها التِئامُ *** ولا يَلْتامُ ما جَرَحَ اللِّسانُ[1]

المُخاطَب بكاف الخطاب في جملة ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾:

من خطابات القرآن ما يخصُّ الرّسولَ ﷺ ومنها ما يعمُّ أُمَّتَه

المُخاطَب بكاف الخطاب في قوله تعالى: ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ هو رسولُ الله محمّد ﷺ ؛ لأنَّه المُخاطَبُ الأوّلُ بالوحي الشّريف، وبنصوص القرآن الكريم، ثمَّ يكون الخطابُ في بعض المَواضِع القرآنيّة لأُمَّته؛ كقوله تعالى في السّورة نفسها: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ [الحجّ: 2]، و﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحجّ: 5]، وغيرهما مِنَ المَواضِع الّتي خوطِبَ بها الرّسولُ ﷺ أوّلًا، ثمّ خوطِبَ بها كلُّ مُسلمٍ من أمَّتِه من بعدِه إلى قيام السّاعة.

معنى الفاء في جواب الشّرط ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ واقِعةٌ في جواب الشّرط ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾، رابطةٌ للجواب بالشّرط، اقتضاها اقترانُ الجواب بالحرف (قد)؛ إذْ لا يجوز: (وإنْ يُكذِّبوك قد كُذِّبَ الّذين من قبلهم) بدون الفاء؛ لأنَّ (قد) بدون الفاء تُؤذِنُ باستئناف خبرٍ جديدٍ قبلَ تمام الشّرط، وتقطَعُ الجوابَ عنِ الشّرط؛ فجاءَتِ الفاءُ للرّبط بينهما.

(1) الثّعالبيّ، اللّطائف والظّرائف، ص: 104، ولم أقف على قائل البيت.

نكتةُ حذف جواب الشَّرط:

من مُقتضيات الحذفِ المسارعةُ إلى ذِكْر الأهمِّ في مَقامه

الفاءُ هنا تُؤذِنُ بجوابٍ محذوفٍ، تقديره: (وإنْ يُكذِّبوك فاصبِرْ؛ فقد كُذِّبَ الّذين مِن قبلهم)، أو: "فلا عجبَ في تكذيبهم، أو: فلا غَضاضةَ عليك"[1]، فـ "أُقيمَت تلك الجملةُ مقامَه؛ اكتفاءً بذِكْر السَّبب عن ذِكْر المُسبَّب"[2]، ومن لطائف حذف المفعول هنا المسارَعةُ إلى ذِكْر جملة التّسلية؛ لأنّ ذِكْرَ التّسليةِ هنا أهمُّ بالنّسبة إلى المخاطَب ﷺ، أمّا المفعول ففهمُهُ مِنَ السّياق ميسورٌ.

ومن بلاغة حذف الجواب هنا كذلك المُسارَعةُ إلى استحضار صبرِ الرُّسلِ السّابقين عليهم السلام جميعًا لتسليته ﷺ، والتّهوين مِنَ الأمر عليه، فضلًا عن عدم الإثقال عليه بلفظ الأمر (فاصبر)، والجمع بينه وبين ثِقَل التّكذيب مِنَ الكفّار.

دلالة (قد) في ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ﴾:

تعديد الأمثلة وكثرتها يُثَبِّتُ المعنى المقصودَ في نفس المُخاطَب

جاءت (قد) في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ للتَّحقيق والتَّأكيد؛ لذلك ناسبَها التّعبيرُ بالماضي ﴿كَذَّبَتْ﴾، وفي ذلك تطييبٌ لِخاطره ﷺ، وشحذٌ لِهمَّته على مواصلة الدَّعوة وجهاد المناوئين؛ فقد "ذكر تعالى في هذه الآيات سبعَ أمم، كلُّ واحدة منهم كذَّبَت رسولَها"[3]، وتعديد الأمثلة وكثرتها يُثَبِّتُ المعنى المقصودَ في نفس المُخاطَب كما هنا، وبذلك يُرشِدُ القرآنُ الكريمُ إلى معالجة النّفوس المَكلومَةِ بذكر النّماذج المُشابِهة في الصّبر على مواجهة الصِّعاب، وقوَّة التَّحمُّل في سبيل الخير.

وجه تأنيث ﴿كَذَّبَتْ﴾ مع المذكَّر ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾:

قد يُؤنَّثُ الفِعلُ لِفاعلٍ مُذكَّرٍ لفظًا مُؤوَّلٍ بمؤنّثٍ معنًى

أُنِّثَ الفعل ﴿كَذَّبَتْ﴾ مع الفاعل المُذكَّر ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ لأنَّ "القوم المُكذِّبين كانوا على طبيعةٍ واحدةٍ مِنَ الضَّلال والعَمى، فكأنَّهم بهذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 283.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 323.
(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 267.

كتلةٌ مُتضخِّمةٌ مِنَ الظَّلام، لا يَخرُجُ منها إلّا ما هو شرٌّ وضُرٌّ؛ فكأنَّ الفعلَ واقعٌ على هذا الكيان الفاسد، أو هذه القطعة مِنَ الظَّلام والضَّلال! ومنِ جهةٍ أخرى، فإنَّ الفعلَ ﴿كَذَّبَتْ﴾ مُسلَّطٌ على هؤلاء الأقوام الّذين ذكرَتهم الآية: ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾، وهم بهذا أُمَّةٌ واحدةٌ في الضَّلال، وإنْ كانوا أممًا عديدةً في الأمكنة والأزمنة"[1]، ثمّ إنّ "الفاعلَ ﴿قَوْمُ﴾ اسمُ جمعٍ، يجوز تذكيرُهُ وتأنيثُهُ، وفي اختيار التّأنيث حطٌّ لِقَدر المُكذِّبين"[2].

لطيفة حذف مُتعلَّقِ التّكذيب في ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾:

الرّسولُ لا يَنطِقُ بكذِبٍ أبدًا لا في الرّسالة ولا في غيرها

مُتعلَّقُ التَّكذيب محذوفٌ من قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ إذ لم يُذكَرْ في أيِّ شيءٍ كذَّبوه ﷺ، وجائزٌ أن يكونَ قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ في الرّسالة، وفيما تُخبِرُ عنِ اللّه تعالى مِنَ الأخبار، يُصَبِّرُ رسولَه أنْ لستَ أنت بأوَّلِ رسولٍ مُكذَّبٍ في الخَلق، ولكن قد كذَّبَ الأقوامُ الّذين كانوا قبلك رسلَهم في الرّسالة[3]، وتكمُن لطيفةُ حذف هذا المُتعلَّق أوَّلًا في الإيجاز؛ لأنَّه مُحدَّدٌ؛ فالقومُ يتعارفونَه فيما بينَهم بالصّادق الأمين، فليس التَّكذيبُ إلّا في الرِّسالة وتفاصيلها.

التَّنويه بعُلوِّ شأنه ﷺ

ثمَّ في التَّنويه بعُلو شأنه ﷺ عند ربِّه سبحانه وتعالى؛ إذ أطلَقَ جهاتِ التّكذيب، ولم يُقيِّدها بالرّسالة؛ ليُفهَمَ من ذلك الإطلاقِ أنَّ الرّسولَ ﷺ لا ينطِقُ بكذِبٍ أبدًا، لا بخصوص الرّسالة، ولا في عموم غيرها، وذلك يتَّسقُ معه صريحًا في قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم: 3].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1050.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 157.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 7/ 427.

دلالة إسناد التّكذيب إلى الأقوام صراحةً:

الـرّســولُ ﷺ بمَنزِلةٍ كريمةٍ من ربِّه

في إسناد تكذيب الرُّسُل - صلوات الله تعالى عليهم - صراحةً من أقوامهم: ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ﴾ تأكيدُ التّسلية للرّسول ﷺ بتشبيه قريشٍ بالأقوام في التّكذيب، وأنّه دَيدنُ الأمم الّتي استمرأتِ الضّلالَ واستلذَّتِ المعصيةَ.

وذِكرُ الأقوام المُكذِّبين - قومًا قومًا - يُفسِحُ للحديث المُطوَّلِ، الّذي مِن شأنه دَعمُ مواساته، وتأكيدُ تَطييب نفسه ﷺ بأنَّ شأنَ أُمَّته شأنُ هؤلاء الأقوام المُتتابِعة على منهج الكفر والضّلال.

نكتة ذِكر القَيد ﴿قَبْلَهُمْ﴾:

لا بُدَّ للدُّعاة مِنَ التَّسلُّح بالصّبر؛ فالصِّدام بين الحقّ والباطل حَتمي

﴿قَبْلَهُمْ﴾ هنا يعني: "قبل قومك"[1]، "فتلك هي سبيل الأنبياء مع أقوامهم ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: 44]، وأنت أيُّها النَّبيُّ لستَ بمَعزلٍ عن هذا، ولا قومك ببِدعٍ بين الأقوام، إنَّه حقٌّ وباطلٌ، وإنَّه لا بُدَّ مِنَ الصِّدام؛ ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]"[2].

ومِنَ المُقرَّر لدى الرّسول ﷺ أنَّ أولئك الأقوام المُكذِّبين لرسلهم كانوا قبل قريش وجودًا في الدّنيا، وتكذيبًا للرُّسل ﷺ في الدّين، ومع ذلك آثرَ النَّظمُ الكريمُ ذِكْرَ القبليَّة في: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾، لِتطييب خاطرِهِ ﷺ.

توجيه المُتشابَه اللّفظيّ في الآية الكريمة:

وَقَعَ التَّشابهُ بين قول الله تعالى هنا: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، وقوله تعالى في سورة ص: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ [ص: 12 - 13]، وقوله

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 463.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1049.

تعالى في سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: 12 - 14].

من وجوه التّشابهِ بين المَواضِع الثّلاثة أنّها عدَّدَتْ نفسَ الأقوامِ المُهلَكة؛ وهي: قومُ نوحٍ، وعادٌ، وثمودُ، وقومُ لوطٍ، وأصحابُ الأيكةِ، وقومُ فِرعونَ، ومن وجوه التَّشابُه تَكرارُ أسماء بعض الأنبياء في المَواضِع الثّلاثة مع أقوامهم؛ وهذان (نوح)، (لوط) عليهما السلام؛ وبعد ذلك لعدم اشتهار قوميهما باسمٍ ولا بوصفٍ، مثلما اشتهرَتْ عادٌ، وثمودُ، وفرعونُ؛ فلَزِمَ ذكرُهما مضافًا إليهما قومهما في المَواضِع الثّلاثة بخلاف هودٍ وصالحٍ عليهما السلام.

ومع ذلك اقتضَت سياقاتُ تلك الآيات التَّصرُّفَ في تراكيبها؛ لتحقيق الانسجام والدِّقَّة، "قالَ الخَطيب: (سورَة ص) بُنيت فواصلُها على رِدف أواخرها بالباء والواو؛ فقالَ في هذِه السّورَة: ﴿ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾ [ص: 12] ﴿ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ [ص: 13] ﴿عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: 14]، وجاء بإزاءِ ذلك في (سورة ق): ﴿وَثَمُودُ ﴿١٢﴾﴾ [ق: 12] ﴿وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: 14]، فالقصدُ للتّوفيق بالألفاظ مع وضوح المعاني"[1].

ومِنَ اللّافت في المَواضِعِ الثّلاثة اتِّفاقُها جميعًا في ذِكْر (عاد)، و(ثمود) دون اسمَي نَبيّيْهما.

ولعلَّ السِّرَّ في ذلك أنَّهما قبيلتان عربيَّتان مشهورتان؛ وذلك أجدى في تخويف قريش من مثل مصيريهما، وهم يمرّون بديارها، ويستحضرون فظاعةَ هلاكهم.

لطيفةُ تعريف بعض الأنبياء بالإضافة إلى ﴿قَوْمُ﴾:

في إضافة ﴿قَوْمُ﴾ إلى ﴿نُوحٍ﴾ وهكذا ... وتعريفُ أقوامهم بهم عليهم السلام أيضًا دعمٌ لِمواساة النّبيّ ﷺ؛ وكأنَّ تلك الإضافةَ تقولُ له: يا

أشـدُّ التَّكذيب مـــــرارةً عـلى النَّفس تكذيبُ الـــدّاعـــي إلى الخير من أهله

(1) الكِرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 217.

مُحمَّد لا تجزَعْ ولا تحزَنْ؛ فقد لاقى نوحٌ ﷺ من قومه الّذين هُم قومُه - وأولَى النّاس بِتصديقه وإكرامه - التَّكذيبَ كما لقيتَ أنت مِن قومك إلى أن صمّوا آذانَهم، واستغشَوا ثيابَهم.

وهكذا لاقى إبراهيم ولوط وغيرهما؛ فصَبَروا على أقوامهم حتّى مضى فيهم أمرُ اللّه تعالى.

لطيفة اقتران بعض الأقوام بأنبيائهم دون بعض:

النَّظمُ القرآنيُّ يُحقِّقُ لقارئه إمتاعَ الجَنان وطلاقةَ اللّسان ونغَمَ الآذان

ذَكَرَ النَّظمُ الكريمُ أقوامَ نوح وإبراهيمَ ولوط مُضافين إلى أنبيائهم ﷺ؛ بينما جاء أقوامُ هودٍ وصالحٍ ومَدينَ مُجرَّدين مِن ذلك؛ واللّطيفةُ في ذلك أيضًا "تنويعُ النَّظم بِتوزيع الكلمات ذات النَّغَم الواحد، مثل: ﴿قَوْمُ﴾، هذا التّوزيعُ غيرُ المُتتابِع؛ حتّى لا يثقُلَ على الأُذُن، ولا يُثيرَ المَلَل والسَّأم؛ فكان هذا التَّوزيعُ الّذي ترى وتسمع تساوُقَ لَحنِه وروعةَ نغمِه، ولو ذهبتَ تُقيمُ النَّظمَ على أسلوبٍ واحدٍ، فتذكُرَ الأقوامَ مُضافين إلى أنبيائهم، أو تذكُرَهم بأعيانهم مُجرَّدين من تلك الإضافة - لوجدتَ نظمًا قلِقًا مُضطرِبًا، يتعثَّرُ به اللّسانُ، وتَستثقلُهُ الآذانُ"[1].

وجهُ ترتيبِ ذِكْرِ الأقوامِ المُكذِّبين:

يراعي الذِّكر الحكيم في ذِكر الرُّسل وأقوامهم ترتيبهم الزَّمنيَّ غالبًا

دَرَجَ القرآنُ الكريمُ في أغلب مَواضِع ذِكْرِهِ الأقوامَ المُكذِّبةَ لِرُسُلِها ﷺ على ترتيبهم بحسب وجودهم في الدّنيا؛ فقال هنا مثلًا: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ﴾، وقلَّما خالَفَ ذلك التَّرتيبَ، وتكون المخالَفةُ لأغراضٍ تقتضيها مَقاماتُها وسياقاتُها، تأتي في مظانِّها بمشيئة اللّه.

معنى الواو في ﴿وَعَادٌ﴾ ﴿وَثَمُودُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ ... إلى آخره، واو العطف

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 9/ 1049.

الّتي تجمعُهُم جميعًا لتُشرِكَهم في حُكم التَّكذيب للرُّسل ﷺ، وكأنَّهم تواصَوْا به، برغم أنَّهم كانوا مُتفرِّقين زمانًا ومكانًا، وفي ذلك تأكيدٌ لتسلية رسول اللّه محمّد ﷺ، وتثبيتٌ لِقَلبه.

سِرُّ ذِكْر ﴿وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ دون وصفهما بـ(قوم):

تُذكَرُ عادٌ وثمودُ باسمهما لاشتهارهما به دون الوصف بالقوم

"استُغني في عادٍ وثمودَ عن ذِكْر القوم لاشتهارِهم بهذا الاسم الأخصَرِ، والأصلُ في التَّعبير العِلمُ؛ فلذا لم يَقُلْ قومُ صالح وقومُ هودٍ، ولا عِلمَ لغير هؤلاء، ولم يَقُلْ: وقومُ شُعيبٍ، قيل: لأنَّ قومَه المُكذِّبين له ﷺ هُم هؤلاء دونَ أهلِ الأيكَةِ؛ لأنَّهم - وإنْ أُرسِلَ ﷺ إليهم فكذَّبوه - أجنَبيّون، وتكذيبُ هؤلاء أيضًا أسبَقُ وأشدُّ"[1].

نكتةُ المغايرة في إسناد التَّكذيب في الآية:

عادٌ وثمودُ مِنَ العرب؛ لذلك ذَكَرَهم باسمهم مباشرةً لقُريش

مِنَ اللّافت هنا أنَّ النَّظمَ الكريمَ غايَرَ في إسناد التَّكذيب إلى الأمم، فأسندَهُ إلى قوم نوحٍ أوَّلًا، ثمّ أسندَهُ إلى عادٍ وثمودَ دون وصفهما بالقوم مُضافَيْن إلى رسوليْهما، ولعلَّ في ذلك إشارةً إلى الفَرْق بين أقوام أولي العزم (نوح وإبراهيم وموسى ﷺ) وأقوام غيرهم، بخلاف عادٍ وثمودَ؛ فليسوا من أقوام أولي العزم؛ "أمّا ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ فقد تواترَ خَبَرُهُم بين الأمم بسبب خبر الطّوفان، وأمّا عادٌ وثمودُ فهُم مِنَ العرب، ومساكنُهم في بلادهم وهم يمرّون عليها، ويُخبِرُ بعضُهم بعضًا بها"[2]؛ فكان ذِكرُهما باسمِهما الصّريح أرجى في اعتبار قريش بهما، "وأصحابُ مَدْينَ هم قومُ شعيب، وإنَّما لم يُعبَّر عنهم بـ(قوم شعيب) لِئلّا يَتكرَّرَ لفظُ ﴿قَوْمُ﴾ أكثر من ثلاث مرّاتٍ"[3]، "وقال: وكُذِّبَ موسى؛ لأنّ مُكذِّبيه هُمُ القبطُ قومُ فِرعونَ، ولم يُكذِّبْه قومُهُ بنو إسرائيلَ"[4].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 157.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 196.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 283.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 283.

سِرُّ تكرار كلمة ﴿قَوْمُ﴾ في الآية الكريمة:

قــوم إبـراهيـم أشبـهُ الأقــوام المُكذِّبة بقريشٍ في إلجاء نبيِّهم إلى الخروج

ماثلَ أقوامُ نوحٍ وإبراهيمَ ولوطٍ ﷺ في قبائحهم كفّارَ قريش، الّذين كذَّبوا خاتمَ الرّسلِ ﷺ، فقد كادَ كلٌّ من هؤلاء لنبيِّه كيدًا سافرًا مُتبجِّحًا لا خَجلَ فيه، ولا مَسافةَ لأدبٍ وخُلُقٍ، ولا رِعايةَ لِذِمَّة رحم، "ومناسبةُ عدِّ قوم إبراهيمَ ﷺ هنا في عداد الأقوام الّذين أخذَهُمُ اللّهُ دون الآيات الأخرى - الّتي ذُكِرَ فيها مَن أُخِذوا مِنَ الأقوام - أنَّ قومَ إبراهيمَ ﷺ أتمُّ شَبَهًا بِمُشركي قريشٍ في تكذيبِهم لرسولهم وإيذائه، ودَفعِهِ للخروج من مَوطِنه؛ فكان ذِكْرُ إلجاءِ قريشٍ المؤمنينَ إلى الخروج من مَوطِنهم في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ مناسبةً لِذكْر قوم إبراهيمَ"[1].

براعة الجَمْع بين نوحٍ وإبراهيمَ ولوطٍ وموسى ﷺ:

ذِكْــرُ الأنبـيـاء الأربـعـة أقـوى تَسليةً للرّسول ﷺ وأشــدُّ تهديدًا لقريشٍ

في التَّصريح بذِكْر نوحٍ وإبراهيمَ ولوطٍ وموسى ﷺ مزيدُ تطييبٍ لِخاطره ﷺ ؛ والعَلاقةُ بين هؤلاء الأربعة مِنَ الرُّسل الكرام بالنّسبة إلى مواساته ﷺ من جهة، وبالنِّسبة إلى تهديد قريشٍ من الجهة الأخرى واضحةٌ؛ فثلاثةٌ منهم اجتُثّ مُكذِّبوهم، والرّابع أبو الأنبياء إبراهيم؛ فكان جمعُهُم ﷺ ذِكْرًا أقوى تَسليةً لنبيِّنا الكريم، وفي الوقت نفسه أشدَّ تهديدًا لمُشركي قريش والتَّعريض لهم بأنَّ استئصالَهُم أمرٌ واردٌ، وأنَّ عاقبةَ تكذيبهم الرّسولَ خطيرةٌ؛ فليَحذروا.

دلالة حذف مفعول الفعل ﴿كَذَّبَتۡ﴾:

قــد يُــحــذَفُ المفعولُ تَكريمًا لــه وتَـطـبـيـقًـا عمليًّا لمبدئه

من لُطَف القرآن الكريم ورُقيِّه ومراعاته لخاطر الرُّسل الكرام ﷺ؛ أنَّه طوى مفعولَ الفعل في ﴿كَذَّبَتۡ﴾؛ ففي طيِّ ذِكْره تكريمٌ للرُّسُل الكرام ﷺ، ومراعاةٌ لِمَنزلَتهم مِنَ الله تعالى وتطبيقٌ عمليٌّ لإقصاء رائحة التَّكذيب - الّذي أخذَهُ على الكُفّار وهدَّدَهُم بعواقبه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 283.

- عن جناب الرُّسل - صلوات الله تعالى عليهم -، وعدم إيقاع التَّكذيب عليهم صراحةً -، وإلى ذلك حُذِف مفعول ﴿كَذَّبَتْ﴾ "لكمال ظهور المُراد"[1].

معنى الواو في ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰٓ﴾:

لا يَدخُلُ المبنيُّ للمفعول في حيِّز المَبنيِّ للمعلوم

الواو في جملة ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰٓ﴾ واو العطف، غير أنَّها لا تعطِفُ على الجملة السّابقة عليها مباشرة؛ وهي: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ وإنَّما تعطِفُ على رأس جملة الجواب ﴿فَقَدْ﴾؛ والمعنى: (وإنْ يُكذِّبوك فقد كَذَّبَتْ ... وقد كُذِّبَ موسى)؛ وذلك حتّى لا يدخُلَ المبنيُّ للمفعول: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰٓ﴾ في حيِّز المَبنيِّ للمعلوم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾.

دلالة بناء الفعل ﴿وَكُذِّبَ﴾ للمفعول:

لم يكُنْ موسى عليه السلام من قوم فرعونَ ولا كذَّبَ موسى قومُه

لمّا كانَت قصّةُ موسى أشيعَ قَصص الأنبياء عليهم السلام ذِكرًا في القرآن الكريم، وكان فرعونُ وقومُهُ أفجرَ الأقوام؛ كان الأنسبُ طيَّ ذِكرِهم وتَجاهُلِهم، وبناءَ فِعلِ تكذيبِهم موسى عليه السلام للمفعول: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰٓ﴾؛ والفاعلُ معلومٌ ولا داعي لِذكْره، والفاعلُ مذمومٌ ولا شرفَ له ليذكَرَ، ثمّ إنّ موسى عليه السلام "لَمْ يُكَذِّبْه قومُه؛ بل كَذَّبَه القِبطُ"[2]، وقيل: "مَن كذَّبَه منهم تابَ إلّا اليسيرَ، وتكذيبُ اليسيرِ مِنَ القوم كَلا تكذيبٍ؛ ولِهذا لم يَقُلْ: وقومُ موسى كما قيل: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾"[3].

لطيفة اختصاص موسى في الآية:

تكذيب قوم موسى كان شنيعًا؛ لكون آياتِهِ في كمال الوضوح

لموسى عليه السلام خصوصيّةٌ جعلَت تكذيبَه مِن الجُرْم بحيث يُفْرَدُ عن تكذيب الأنبياء عليهم السلام، وإنْ كان تكذيبُهم جميعًا جُرمًا لا يُستهانُ به؛ ذلك أنَّ موسى كليمُ الله تعالى الّذي اصطنعه لنفسه، وهو النَّبيّ

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 9/ 157.
(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 126.
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 9/ 157.

الّذي لم ينسَ قضيَّته رغم اغترابه؛ فعاد ودعا وقاوم، وانتشل قومَه مِنَ الظُّلم، كذلك خُصَّ موسى بِفعل تكذيبٍ مُستقلٍّ "للإيذان بأنَّ تكذيبَهم له كان في غاية الشَّناعة؛ لكون آياتِهِ في كمال الوضوح"[1]، فكأنَّ هذا الفعلَ المُستقِلَّ يقول: وإذا كان موسى ﷺ قد كُذِّبَ أيضًا "مع وضوحِ آياتِه، وعِظَمِ مُعجزاته، فما ظنُّك بِغيره؟"[2]؛ فلذا أُفرِدَ تكذيبُه بفعلٍ مُستقلٍّ.

دلالة الفاء في ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾:

الله يعلَمُ المؤمنَ من غيره؛ لكن يُملي ليقيمَ الحُجَّةَ على الكافرين

الفاء في جملة ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَفِرِينَ﴾ تفريعيَّةٌ تعقيبيَّةٌ، رغم أنَّها اقترنَت بفعل الإملاء؛ فبينما أمهل اللّهُ تعالى الأقوامَ المُكذِّبة وأملى لهم، وأرخى لهم، عسى أن يثوبوا إلى الصَّواب؛ تأتي الفاءُ لتُفرِغَ التّهديدَ على كفّار قريش بأنّ أخذَ اللّهِ تعالى إيّاهم يوشِكُ أن يَحُلَّ بهم، وأنْ يستأصِلَهم؛ فعليهم ألّا يغترّوا والإملاء؛ فإنَّه إمهالٌ محفوفٌ بالمخاطر، وأنَّ تكذيبَهم من شأنه أنْ يُرتِّبَ عليه إهلاكَهم، وقد نُقِلَ عنِ الحسن ﷺ قوله: "إنَّ اللّه تعالى لَم يُهلِكْ قومًا بأوَّلِ التَّكذيب، ولكن أمهلَهُم قَرْنًا فقرنًا، وقومًا بعد قومٍ، ورسولًا بعد رسولٍ"[3].

مهما طال الإملاءُ فأخذُ الله للكافرين آتٍ

وقد لمح ابن عاشور مَلمَحًا دقيقًا؛ فقال: "والفاء في ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَفِرِينَ﴾ للتَّعقيب دلالةً على أنّ تقديرَ هلاكِهم حاصِلٌ من وقت تكذيبهم، وإنَّما أُخِّرَ لهم، وهو تعقيبٌ موزَّعٌ، فلِكلِّ قومٍ من هؤلاء تَعقيبُ إملائِهِ، والأخذُ حاصِلٌ بعد الإملاء بِمُهلةٍ، فلذلك عُطِفَ فِعلُه بِحرف المُهلَة"[4]، فـ "الفاء لترتيب إمهال كلِّ فريقٍ من فِرَقِ المُكذِّبين على تكذيب ذلك الفريق لا لترتيب إمهال الكلِّ على تكذيب الكلِّ"[5]؛

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 110.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 259.
(3) الماتريديُّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 7/ 427.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 284.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 110.

"فكذلك قريش أملى تعالى لهم، ثمَّ أخذَهُم في غزوة بدرٍ، وفي فتح مكّةَ وغيرهما، والأخذ كناية عنِ العقاب والإهلاك"[1].

سِرُّ التّعبير بلفظ الإملاء:

قد يُمهِلُ اللهُ تعالى الظّالمَ وقد أوجبَ له الهلاكَ

"الإملاءُ: تركُ المُتلبِّس بالعصيان دون تعجيلِ عقوبته، وتأخيرِها إلى وقتٍ مُتأخِّرٍ حتّى يَحسَبَ أنّه قد نَجا، ثمّ يُؤخَذَ بالعقوبة"[2].

وفي الإملاء تنبيهٌ لِمَن يُعادي الأنبياء ﷺ في عُهودهم وإبّان دعواتهم، ومَن يُعادي الصّالحين المُصلِحين مِن بعدِهم وتنبيهٌ إلى أنّ سُنَّةَ الله تعالى ماضيةٌ على إرخاء العَنان للمُكذِّبين المُجرِمين، وأنّ تأخيرَهم لا يَعني رِضوانَهُ سبحانه عنهم ورضاه بإجرامهم؛ وإنَّما هو الإملاءُ الّذي يَقطَعُ العُذرَ ويَحسِمُ الأمرَ حتّى إذا أخذَهم لم يُفلتْهم، فليثوبوا إلى طريق الحقِّ، وليكفّوا عن تكذيب رسوله ﷺ.

براعة الإفراد في الفعل ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾:

جهةُ الرّحمة بالعاصي واحدةٌ وجهاتُ الغضب عليه عديدةٌ

من دقيق معنى النّظم القرآنيِّ هنا إسنادُه الفعلَ إلى الضّمير المُفرَد في الفعل ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ دون ضمير العظمة، كما لو قيل في غير القرآن الكريم: (أملينا)؛ وذلك لأنَّ الّذي يَرحمُ ويُملي لهم واحدٌ فقط، هو الله ﷻ القاهر فوق عباده، في حين تُبغِضُ مَخلوقاتُهُ تعالى مُكذِّبَ رسوله ﷺ، وودّوا لو فَتَكوا به؛ فلَفَتَ النَّظمُ الكريمُ إلى هذا المعنى الدّقيق بإفراد الضّمير إلى تشديد النَّكير عليهم إلماحًا إلى تفرُّدِه تعالى بالرَّحمة الّتي تمنحُهُم الفرصةَ، وأنَّ ذلك لو تُرِكَ لِسواه مِن خَلْقِهِ ما رحمَهُم.

معنى اللّام في ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

مكذِّبو الرُّسل حقيقون مُستحِقّون لذلك الأخذ النّكير

اللّام في القيد بالجارِّ والمجرور ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ لامُ الاختصاص والاستحقاق؛ فالله تعالى يَختصُّ أولئك الكافرين المُكذِّبين بالإملاء،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 519.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 284.

ثمّ الأخذِ النّكيرِ، وأنّهم بتكذيبهم الأنبياءَ ﷺ وكفرِهم باللّه تعالى الخالقِ العظيم، حقيقون مُستحِقّون لذلك الأخذ النّكير؛ بما قدَّمت أيديهم مِنَ التّكذيب والجحود والكفر الصّريح.

دلالة التّعبير بصيغة اسم الفاعل الظّاهر ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

الـكُـفـر يُـعـمي ويصمُّ عن رؤية الحقِّ وسماعه إلّا مَن رحم الله تعالى

في التّعبير بصيغة اسم الفاعل (الكافِر) في جملة ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ إشارةٌ إلى عنادهم الصّميم، وثباتهم المَقيت على التّكذيب والكفر والجحود، وفي التّعبير بالاسم الظّاهر ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ دون التّعبير بضميرهم (أمليت لهم) - وهو جائز؛ لأنّه قد سَبَقَ ذِكرُهُم - موهِمٌ لِعموم الإملاء والأخذ، وأنّه - وإنْ كان على بُعدٍ - يَعمُّ الدّاعين ﷺ مع المدعوّين؛ فكان في التّصريح بالاسم الظّاهر، وكذلك في التّصريح باسم الفاعل ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ تطهيرٌ للسّياق من ذلك اللّبس، وتنبيهٌ إلى سببيَّة الإملاء والأخذ، وأنّه الكُفْرُ الصّريح والجحود، فضلًا عنِ التّكذيب المُتبجِّح؛ وفي ذلك "تصريحٌ بمُكذِّبي موسى ﷺ؛ حيثُ لَم يُذكَروا فيما قبلُ صراحةً"[1].

نكتة التّعبير بِـ ﴿ثُمَّ﴾:

إرخـاء العَـنان بالإملاء بـ (ثـمّ) يـقـطَـعُ عـلى الكافرين العذرَ

من بديع النَّظم الكريم في جملة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ التَّعبيرُ بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ إذ بإيثارها هنا يكون فعلُ الإملاء قد أُحيط من حَوالَيهِ بأداتَي العطف الفوريّة والرَّخية؛ فجاءَتِ (الفاء) قبلَه ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾، و﴿ثُمَّ﴾ بعده ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾، فتحقَّقَ المَعنيان معًا في المَوضِع الواحد: معنى الأخذ القطعيّ، الّذي يوشِكُ أن يَقعَ بكفّار قريش بموجب الفاء التَّفريعيَّة التَّعقيبيَّة، ومعنى الإملاءِ المُتراخي الّذي يَقطَعُ عليهم كلَّ عذر بموجب ﴿ثُمَّ﴾ القائلة بالتّراخي الدّاعمة لمعنى الإملاء.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 110.

براعةُ الاستعارة في التَّعبير بالأخذ دون الإهلاك:

إهـــلاكُ الـلـه تـعـالى الظّالمين في يُسرِ تـنـاوُلِ شيءٍ فهو دليلُ الهوان والصَّغار

"الأخذُ حقيقتُهُ التَّناوُل لِما لَم يكُنْ في اليد، واستُعيرَ هنا للقُدرة عليهم بتسليط الإهلاك بعد إمهالِهم، ومناسبةُ هذه الاستعارة أنّ الإملاءَ لَهم يُشبهُ بُعدَ الشَّيء عن مُتناوِله، فشُبِّه انتهاءُ ذلك الإملاء بالتَّناوُل، شُبِّه ذلك بأخذِ اللّه ﷻ إيّاهم عنده، لظهور قدرته عليهم بَعد وعيدِهم"[1]؛ ففي التّعبير بالأخذ تصويرٌ مُجمَلٌ لِتناولهم باستهانةٍ، وأنَّهم شيءٌ ضعيفٌ حقيرٌ؛ ففيه كنايةٌ عن هَوانِهم وصَغارهم تحت قدرة اللّه تعالى، ويُسْر الفتك بهم بالنّسبة إلى قوّته، وعظمته سبحانه، على أنّ أخذَهم لم يكُنْ دفعةً واحدةً؛ وإنَّما أخذَ "كلَّ فريق من فِرَق المُكذِّبين بعد انقضاء مُدَّة إملائه وإمهاله، والأخذُ كنايةٌ عنِ الإهلاك"[2].

سِرُّ إسناد الأخذِ إلى تاء الفاعل في الآية:

كـأنّ اللـهَ تعالى يُـبـاشِـرُ إهـلاكَ مُـكـذِّبي رسوله ﷺ

أُسند الأخذُ في قوله تعالى: ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾ إلى تاء الفاعل (المُفرد) اتِّساقًا مع إفراده في ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾، كذلك فيه تصريحٌ بمُباشرته ﷻ أخذَهم دون إيهام التّجاوز بالتَّعبير بضمير العظمة (نا) عن أخذ الملائكة إيّاهم؛ ففيه مزيدُ ترهيبٍ وشدَّةُ تحذيرٍ لقريش الّتي تُكذِّبُ الرّسولَ ﷺ.

دلالة إيقاع الأخذ على ضمير الجماعة ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾:

المكذِّبون جميعًا بالنّسبة إلى الله تعالى كالشّيء الواحدِ الضَّئيل

إيقاعُ الأخذ على ضمير المُكذِّبين في ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾ يدُلُّ على هَوانِهم عليه ﷻ، وأنَّهم جميعًا كالشّيء الواحد الصَّغير الضَّئيل الّذي يتناولُهُ المُتناوِلُ بيده، وهم فعلًا كذلك بالنّسبة إلى قُدرة اللّه العظيم ﷻ.

ويُلمِحُ سكونُ ضمير (هم) إلى سرعة الأخذ، والفراغ منه بسرعةٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 283.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 158.

خاطفةٍ، تؤول بهم إلى حيث تُبَتُّ أخبارُهم وتَسكنُ سيرتُهم، وتختفي أصواتُهم، ويُطوَى تكذيبُهم.

معنى الفاء في ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾:

الفاء في جملة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استئنافيَّةٌ، تستأنِفُ تهديدًا جديدًا لِمَنْ يتطاولُ على مَقام النَّبيِّ ﷺ، وتُقرِّرُ أخذَ الله تعالى وإهلاكه لِلمُكذِّبين السّابقين، وتُعرِّضُ بإمكان أخذه تعالى للمُكذِّبين في كلِّ عصرٍ ومصرٍ.

غرض الاستفهام ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ "استفهامٌ تقريريٌّ؛ أيْ: فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب؟ أليس كان واقعًا قَطعًا؟ ألم أُبْدِلْهم بالنِّعمة نِقمةً، وبالكثرة قلَّةً، وبالحياة موتًا، وبالعِمارة خَرابًا؟ ألَستُ أعطَيتُ الأنبياءَ جميعَ ما وعدتُهم مِنَ النُّصرة على أعدائهم والتَّمكينِ لهم في الأرض؟"[1]؛ فالاستفهام يُضفي على أخذ الله تعالى الكفّارَ تهويلًا وتعظيمًا، بحيث لا يقومُ له أحدٌ؛ ففي الاستفهام تهديدٌ جلي لِكفّار قريش؛ وفيه "معنى التَّعجب، كأنَّه قيل: ما أشدَّ ما كان إنكاري عليهم، وفي الجملة إرهابٌ لقريش"[2].

أخـــذُهُ تـعـالى مكذِّبي رُسله مِنَ الفظاعة بحيث لا يُخبَرُ عنه؛ بل يُستفهَمُ

سِرُّ التّعبيرِ بالماضي ﴿كَانَ﴾:

التّعبير بالماضي ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يوحي بالقطع بوقوع العذاب الخطير النَّكير لِمَنْ يُكذِّبون رسول الله ﷺ، وأنَّه مقطوعٌ به مفروغٌ منه، وفي ذلك مزيدُ تحذيرٍ لِكُفّار قريش، وتعريضٌ لهم بِوَشاكة أخذهم إنْ لم يَكفّوا عن تكذيبه ﷺ، وعنِ الكفر بالله تعالى وجحود وحدانيَّته ذاتًا وصفاتٍ.

وقـوعُ الـعـذاب النَّكير قطعيٌّ لِمَن يُكذِّبُ رُسلَ الله ﷺ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 231.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 519.

دلالةُ مُفرَدَة ﴿نَكِيرِ﴾:

تدُلُّ مُفردةُ ﴿نَكِيرِ﴾ على خروج أخذ الله تعالى مكذِّبي رُسله عن الوصف فظاعةً وهَوْلًا، وتوحي بأنّ أحدًا لا يمكنه تصوُّرُه؛ فهو أَخْذٌ منكورٌ مجهولٌ هولُه.

تغييرُ الله تعالى مُنكَرَ مُكذِّبي رسله يكون بإبدال أحوالهم إلى أضدادها

والدّلالة على أنَّ إنكارَهُ سبحانه وتعالى عليهم سيكون أخذًا وإهلاكًا وتدميرًا؛ لأنَّ "النَّكيرَ والإنكارَ تغييرُ المُنكَر"[1]؛ فقد "أبدلَهُم بالنِّعمة محنةً، وبالحياة هلاكًا، وبالعِمارة خَرابًا"[2].

لطيفة التَّعبير بصيغة ﴿نَكِيرِ﴾:

شدَّة التَّحذير مظنَّة الاعتبار

وممّا يَدعَمُ ذلك التَّحذير مِنَ الأخذ المنكور المحظور صياغتُهُ في قالب المبالغة (فعيل): ﴿نَكِيرِ﴾ دلالةً على شدَّة نكارته وفظاعته، وأنَّه "في غاية ما يكون مِنَ الهول والفظاعة"[3].

إشارة حذف ياء الإضافة من ﴿نَكِيرِ﴾:

تسليطُ الله بعضَ عباده على مُكذِّبي رُسُله من نكيره تعالى عليهم

تُحذَفُ ياءُ الإضافة في الذِّكر الحكيم في مثل هذا المَوضِع ﴿نَكِيرِ﴾ - والأصل (نكيري) - لأغراضٍ وإشاراتٍ أخرى غير حذفه "تخفيفًا"[4]، إشارات يختصُّ كلُّ مَوضِع منها ببعضها، والإشارة الخاصّة بهذا المَوضِع تهويلُ ذلك النّكير الّذي يُنزَّلُ بهؤلاء المُكذِّبين، سواء أكان منه تعالى مباشرةً أم كان بتسليطه ﷻ عبادَهُ عليهم، وسواء أكان في الدّنيا أم في الآخرة؛ فحُذِفَت ياءُ الإضافة لِترك الاسم ﴿نَكِيرِ﴾ للتَّنكير؛ الّذي يُضفي عليه تهويلًا، ويُفسِحُ لِعموم كلِّ ﴿نَكِيرِ﴾، إضافةً إلى مُراعاة "الفاصلة، وقد أثبتَها بعض القُرّاء"[5].

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 542.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 161.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 110.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 284.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 158.

نكتةُ إيثار الوعيد بالنَّكير هنا دون العذاب:

حـثُّ المسلمين على أنْ يَبذلوا في تـغـيـير المُـنـكَـر منتهى استطاعتهم

النّكير "الإنكار والإعذار؛ وهو في هذه المصادر بِناءُ مبالغةٍ"(1)؛ "أيْ: كيف كان إنكاري عليهم مُنكَرَهم الّذي هو كفرُهم بي وتكذيبهم رُسُلي، وهو ذلك العذاب المُستأصِل الّذي بيَّنّا، وبعدَه عذاب الآخرة الّذي لا ينقطِعُ"(2)، وقد اختير النَّكير في الآية دون العذاب ونحوه؛ لكونه "وَقَعَ بعد التَّنويه بالنَّهي عنِ المُنكَر لينَبِّه المسلمين على أنْ يَبذلوا في تغيير المُنكَر منتهى استطاعتهم؛ فإنّ اللّهَ تعالى عاقَبَ على المُنكَر بأشدِّ العقاب، فعَلى المؤمنين الائتِساءُ بصُنع اللّه تعالى، وقد قال الحكماء: إنّ الحكمةَ هي التَّشبُّهُ بالخالِق سبحانه بقدر ما تَبلُغُهُ القوَّة الإنسانيَّة، وفي هذا المجال تَتسابقُ جيادُ الهمم"(3).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإملاء والإمهال:

الإملاء: التَّوسيع في الوقت والمكان وغيرهما، "يُقالُ: أملَيتُ للبَعيرِ في قَيدِهِ: وسَّعتُ لَهُ، ومنهُ: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾؛ أي: أمهَلتُهُم"(4)؛ لكنَّه إمهالٌ على نيَّة المعاقبة، كما نبَّه إليه ابن عطيَّة في قوله: "وكأنَّ الإمهالَ أن تُمهِل مَن تنوي فيه المعاقبة، وأنت في حينِ إمهالِك عالِمٌ بفعله"(5)، والإمهال معناه: "الإنظار"(6) مُطلَقًا - على نية المعاقبة أو على غيرها؛ ففي إيثار النّظم الكريم الإملاء مزيدُ تهديدٍ لأهل القرية الظّالمين؛ لعلَّهم يثوبون إلى الحقِّ.

الإمـــــلاء: الإنـــظـــار على نـيَّـة المعـاقـبة، والإمـــهـــال: الإنظار مُطلَقًا

الأخذ والإهلاك:

الأخذ: هو التَّناول باليد، ويُستعمَلُ مجازًا في الانتقام، كنايةً

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 126.
(2) الشَّنقيطيُّ، أضواء البيان: 5/ 269.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 285.
(4) المطرزيّ، المُغرِّب، ص: 447.
(5) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 126.
(6) الحميريُّ، شمس العلوم: 9/ 6401.

عن هوان المأخوذ، المُنتقَم منه، ومادّة (هلك) تدُلُّ على الـ "كَسر؛ ومِنه الهَلاكُ: السُّقوطُ، ولذلكَ يُقالُ لِلمَيِّتِ: هَلَكَ"[1]، و"الإهلاك: إزالة"[2]، فعبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالأخذ دون الإهلاك لبيان يُسرِ الانتقام منهم؛ ففيه معنى الإهلاك وزيادة.

الأخذُ: الانتقامُ، والإهلاكُ: الإزالةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هلك).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (برد).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»